

## اجتهادات كيف تتغيرُ الخرائطُ؟

عندما اندلعت الثورة الفرنسية 1789 بدأ نموذجُ جديدُ في التبلور قوامه الجمهورية، حين كانت الملكية سائدةً في العالم، ومبادئ الحرية وقبول الآخر (الإخاء) والمساواة. وفي الوقت الذي خشيت الدول الكبرى في أوروبا تأثير هذا النموذج الذي كان قابلاً للانتشار حال نجاحه في فرنسا، ضرب نابليون بونابرت به عرض الحائط، وقرر السعي إلى تغيير خريطة أوروبا بالقوة كما كان الحال عبر التاريخ.

وقد حدث التغييرُ فعلاً، ولكن في عكس الاتجاه الذي أراده، لأنه تلقى في نهاية حروبه هزيمةً قاسيةً كرّست الوضع الذي كان قائماً، مع وضع قواعد لتنظيمه في مؤتمر فيينا 1814-1815. وصارت الحروبُ النابليونية أول شاهد على أن محاولات تغيير الخرائط بالقوة تؤدي إلى عكس مبتغى من يُقدمون عليها. وبعد قرن تقريباً، حاولت ألمانيا تغيير خريطة أوروبا بالقوة مرةً أخرى، إذ هي التي أعلنت في 1 أغسطس 1914 الحرب التي عُرفت بالعالمية الأولى، بعد سلسلة من الاحتكاكات أعقبت اغتيال ولي عهد النمسا في 28 يونيو.

وتوسعت الحربُ بسرعة بين التكتلين الرئيسيين في أوروبا حينذاك، ولكنها انتهت بفشل ألمانيا بينما أخفقت فيه فرنسا من قبل، وإطاحة الإمبراطور فيلهلم الثاني ورئيس وزرائه (المستشار) مثلما حدث لنابليون الأول 0 وحدث التغييرُ في مؤتمر فرساي 1919 على حساب ألمانيا.

ومع ذلك لم يتعظ هتلر الذي أعاد الكرة عبر تفجير الحرب الثانية 1939 سعياً إلى الانتقام، وإعادة رسم خرائط القارة. ولهذا لم تختلف النتيجة، إذ هُزمت ألمانيا في النهاية بعد ما انتصرت في البداية، وقُسمت أوروبا وتراجع وزنها في نظام عالمي تصدرته أمريكا والاتحاد السوفيتي. وبرغم حدة الصراع بينهما، لم يحاول أي منهما حسمه بالقوة، بل خاضا مباراةً شهدت انعطافاتٍ شتى فيما

عُرف بالحرب الباردة التى انتهت بفوز من استطاع تقديم نموذج أكثر تأثيراً، وليس سلاحاً أشد قوة.

ولهذا كان درسُ تحولات العلاقات الدولية فى القرنين الماضيين أن من يستخدم القوة العسكرية لتغيير الخرائط فى اتجاهٍ معين يُحقق ما يبدو نصراً فى المدى القصير، قبل أن ينتهى الأمرُ إلى هزيمة، ومن ثم تغيير ولكن فى الاتجاه العكسى.